ملامح الشعر اليمني في العصر العباسي الأول (١٣٢ _ ٢٠٣هـ)*

((دراسة نقدية مقارنة))

د.فرج منسي محمد/كلية التربية للبنات

مدخل في تأريخ اليمن الحضاري

يُجمع المؤرخون وعلماء الآثار على أن اليمن كانت مهد حضارة قديمة منذ ١٥٠٠ ق ٠م إلى سنة ١٦٠٠ ق٠م ، أقدمها الحضارة المعينية التي قامت في منطقة الجوف جنوبي شرق صنعاء في اتجاه الربع الخالي وعاصمتها معين، وحضرموت وعاصمتها مأرب، وقتبان وعاصمتها تمنة (١)٠ولقد تعاصرت كلتا الحضارتين السبأئية والمعينية٠

كما إن الحضارات اليمنية القديمة جميعا قد تزامنت مع حضارات مصر وسوريا والعراق ، إذ إنها أثرت وتأثرت بها ، ولقد عُثر على كثير من أخبار هذه الدول وحضاراتها في الآثار والنقوش اليمنية التي اكتشفها الرحالة وعلماء الآثار والمستشرقون الذين كانوا الرواد الأوائل في دخول المناطق العربية المجهولة(٢)٠

أما بالنسبة للعصر الإسلامي فقد قسمت اليمن إلى مخالف ؛ والمخلاف يشتمل على ؛ محافد وقرى وكان عددها آنذاك أربعة وثمانين مخلافًا (٣)٠

ومنذ أن ظهر الإسلام في اليمن ،كان اليمنيون من أوائل الذين آمنوا بدعوة الرسول محمد ((ﷺ)) ونصروه وظلوا أوفياء لرسالته من بعده ومن دون تعثر ٠ولا يمكن لأحد أن ينكر دورهم الكبير في نشر الدعوة خارج الجزيرة العربية ٠ وقد كان دخولهم الإسلام جماعيا في السنة السادسة للهجرة (٦٢٨ م) ، وتحديدا يوم وصول الإمام علي ((كرم الله وجهه))مبعوثا من الرسول ((ﷺ)) إلى أهل اليمن وعاد يومها يحمل بيعتهم جميعا لله ورسوله ٠ وكان هذا التاريخ هو تاريخ بناء مسجدي صنعاء الكبير ومسجد الجند في أواسط اليمن ٠ وهذه البيعة كانت للقاطنين حقيقة في اليمن ؛ دعك عن الفرادى والجماعات الذين سافروا وبايعوا قبل هذا التاريخ ٠ إلى جانب ذلك أن قبيلتي الأوس والخزرج الذين يشكلون جماعة الأنصار وهم الجانب الذي ارتكزت عليه القاعدة الشعبية لحكومة الرسول ((ﷺ))،والقبيلتان تنتميان إلى ألازد اليمانية ، وهم من النازحين إلى المدينة منذ زمن بعيد ، ولقد بايعوا الرسول ((ﷺ)) قبيل هجرته (٤)٠

والدليل على هذه النصرة اليمنية ، شاعر الرسول ((ﷺ))حسان بن ثابت (رضى الله عنه)٠ إذ كان الصوت الإعلامي للدعوة الإسلامية والذابُ عن سمعة وشرف المسلمين أمام شعراء قريش الذين سلقوا المسلمين _ مهاجرين وأنصار _ بألسنتهم وقصائدهم التي كان حسان فيها المجنَ الذي تكسرت عليه نصلهم وسهامهم الشعرية ، لذا لقب حسان بشاعر الرسول ((ﷺ)) ،مما جعل من أبي عبيدة الراوية والناقد أن يقول فيه: (فضِّلَ حسان على الشعراء بثلاث ، كان شاعر الأنصار وشاعر النبىمحمد ((ﷺ)) في النبوة وشاعر اليمن كلها في الإسلام)، وقال : (أجمعت العرب على إن حسان اشعر أهل الحضر) ، ونص أبو عبيدة على تفضيل حسان على شعراء أهل الحضر وهو رأي أبي عمر بن العلاء أيضا (٥)٠

* آثرنا الأخذ بهذا التاريخ لمن يقسم الأدب العربي العباسي إلى أربعة أعصر ٠ علما إن الأدب في نظرنا هو حالة واحدة ٠ أما هذه التقسيمات فماهي ألا تقسيمات سياسية انعكست على حال الأدب ٠

وتنحدر يمانية هذا الشاعر من كونه أزدي قحطاني من آل جفنة " الغسانيين " وهم أصلا من زبيد ، وجاءت تسمية الغسانيين نسبة إلى ماء عند زبيد شربوا منه فسّموا به ، إذ يشرح حسان هذه النسبة قائلا (٦):

إما سألت فإنا معشرُ نجبِ الأزدُ نسبتنا والماءُ غسان وكان لمشاركة أهل اليمن في الفتح الإسلامي وخروجهم مع بواكير الجيوش الفاتحة لبلاد الشام والرافدين وَشمالي أفريقيا والأندلس ،حُبب للكثير منهم البقاء حيث وصلت حوافر خيولهم ، وهذا السبب جعل لكثيرمن ألاجذام العربية في هذه البلاد ينتسبون إلى الجذور اليمانية، فلا عجب إذا ما عرفنا إن الكثير من رجالات الإسلام وقوادهم وعلمائهم وشعرائهم ينتمون بسبب – بالأصل– إلى اليمانية (٧)؛فمنهم الجراح بن عبد الله الحكمي (٨) ،وأبو نؤاس شاعر بغداد الأول (٩)، وابن مناذر الشاعر ، وأبو الطيب المتنبي من نسب ألام ، وعلي داود الجراح الذي يوصف انه من اعلم واتقى وزراء بن العباس وكان لا يجارى في علم الشعر (١٠)، وكذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي الأصل٠ وكان للمراكز الإقليمية الثلاث صنعاء والجند وحضر موت أثر كبير في التوجيه والتثقيف العلمي المنهجي ، وهذا بفعل توجيه الرسول الكريم (ﷺ) والخلفاءالراشدين من بعده (١١) ٠ والمركز الرابع هو زبيد التي بناها المأمون فأصبحت بعد ذلك حاضرة ته امة واليمن الأسفل بل إحدى أمهات المدن الكبرى في العالم الإسلامي في دُور العلم والعلماء والمكتبات ، لهذا أصبحت مطمح أنظار العلماء والمتعلمين (١٢) ٠

مظاهر التجديد في شعر العصر

لقد سبقت اليمن غيرها من الولايات ، في الانسلاخ عن خلافة الأمويين سنة (١٢١ هـ – ٧٣٩ م)• إثر ثورة الإمام (زيد بن علي)(١٣)٠ الأمر الذي رسم المسار الجديد للاتجاهات الثقافية والأدبية لليمنيين في السنوات اللاحقة – التي تهم بحثنا هذا – وأعني بالسنوات اللاحقة تلك التي بدأت سنة١٣٢ هـ – ٦٥٠ م وهذا التاريخ يشكل نقطة تحول خطيرة في مسار الحضارة الإسلامية ٠

، ولقد وصف نيكلسون الثورة العباسية بأنها أشبه ما تكون بالثورة الفرنسية عام١٧٨٩م ٠ والتي جاءت بعدها بألف عام ونيف ، فالأولى قد وضعت الأمور في نصابها في القرون الوسطى وهذه فعلت الشيء نفسه في القرون الحديثة (١٤) ٠

ولم يكن هذا التشابه في تطور الأحداث السياسية بين الثورتين فحسب بل شمل الجانب الأدبي ، فمعاقل الكلاسيكية في الأدب الفرنسي قد انتهت بمجيء الثورة ، كذلك الأمر بالنسبة للثورة العباسية ، فقد حولت الأدب العربي من الكلاسيكية إلى الرومانتيكية ،وتُرجم هذا التحول إلى التجديد في المعاني والأفكار والألفاظ والأساليب والأوزان والقوافي التي توشح بها الأدب العباسي شعرًا ونثرًا ، كون الثورة التي أحدثها العباسيون إسلامية النهج والفلسفة ، ولكنها ليست خالصة العروبة ، إذ شارك فيها مسلمون من غير العرب وبأعداد كثيرة – خلاف ماكان الأمر عليه عند أسلافهم الأمويين – مما أدي إلى قيام الثورة ،واتسعت دائرة هذه المشاركة حتى شملت مناحي الحياة الفكرية والثقافية ٠

• وكان هذا لانسلاخ على اثر تعصب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ضد اليمانيين في الشام ، ولقد سار عبد الله بن يحيى الكندي الحضرمي والذي يلقب بطالب الحق ، وقد التف حوله اليمانيون

سواء كانوا في الشام أو في اليمن نفسها فزحفت جيوشه نحو الشمال تسيطر على مكة في موسم الحج ثم المدينة ثم إلى دمشق وكادت اليمن أن تسيطر على زمام الدولة وصادف أن كانت جيوش بني أمية

في حالة استنفار اثر إرهاصات الثورة العباسية في العراق وخرا سان مما أدى إلى إيقاف الزحف اليمني الأمر الذي أدى إلى الاكتفاء باستقلال اليمن سنة ١٢١ هـ ٠

ينظر: لمحات من التاريخ والأدب اليمني قديما وحديثا ، عبد الله احمد الثور ، صنعاء ، ١٩٨٣ م ٠ ٢٤٥ –٢٤٦ ٠

فكان العصر بحق عصر تلاقح الحضارات الفكرية والثقافية والأدبية والفنية – فلم تعد الثقافة احتكارا على العرب أنفسهم – إذ هضمت الثقافة العربية الثقافات الأجنبية على اختلاف مواردها عن طريق الداخلين في الإسلام ، زد على ذلك الحرية والتساهل التي منحها الخلفاء العباسيون في هذا العصر ، ومنها سياسة الانفتاح على حركة الأدب خاصة والفنون بأشكالها عامة عند الخليفة المثقف المهدي ٠ كذلك نشاط حركة الترجمة التي شجعها الخلفاء العباسيون ، زمن الخليفة المأمون – صاحب بيت الحكمة ـ كذلك لم تعد الثقافة العربية ثقافة محددة بـ (مكان أو زمان أو جنس) ولكنها صارت ثقافة عالمية بكل ما يحمله هذا التعبير من معان ودلالات (١٥)٠

لقد كان لهذا التمازُج الثقافي أثره الواضح في إنتاج عقلية عربية جديدة ، تأثرت بالثقافات الأخرى وأثرت فيها (١٦) ٠ والذي يهمنا من هذا الامتزاج التأثر

الذي تركه في الأدب العباسي ٠ فقد لاحظ ابن قتيبة التأثر الفكري ببعض من الأفكار الهندية عند أبي نؤاس ،ومن ذلك قوله : (١٧)

سخنتَ من شدة البرودة حتى صرتَ عندي كأنك النارُ
لا يعجبَ السامعون من صفتي كذلك الثلجُ باردٌ حارُ

ويعلق ابن قتيبة على هذا القول مفسرا قول الهنود الذين يزعمون (أن الشيء إذا أشدت برودته عاد حارًا مؤذيًا) (١٨)، وبلغ هذا التأثر حداً مفرطا عند بعض الشعراء إلى أن يقوم البعض منهم بصياغة أمثلة غير عربية ولكنها بلغة عربية شعرية ، فتمثل الشعراء كثيرا من معانيها ،ومن ذلك على سبيل التمثيل المثل الفارسي الذي يقولون فيه: (إذا أقبلت عليك الدنيا فانفق فأنها لا تفنى ، وإذا أدبرت عنك فانفق فإنها لا تبقى))(١٩) ٠ فتمثله أبو العتاهية بقوله : (٢٠)

فانفق إذا أنفقتَ إن كنتَ موسرًا وانفق على ما خيلتَ حين تعسرُ
فلا الجود يفني المال والجد مقبلُ ولا البخل يبقي المال والجد مدبرُ

فيبدو الأثر النقلي المباشر واضحا ولم يكن للشاعر فيه إلا النظم ٠ وهناك الكثير من الأمثلة التي تعزز هذا التحول والانفتاح الثقافي الذي نتحسسه في نثر ابن المقفع وتحليلات الجاحظ وشعر بشار بن برد ومحمود الوراق وأبى العتاهية وغيرهم من وجوه العصر في بابي الشعر والنثر ٠ وكذلك عوامل الترجمة والوراقة التي مهدت الطريق أمام الفهم الثقافي الذي وجد تربة خصبة في المجتمع العباسي فاتسعت دائرته بشكَل سريع ٠ وما يؤيد انتشار هذا الفهم ،ما نجده في أبيات الشاعر محمد بن يسير،إذ يشرح أبعاد هذا الفهم في حواره مع كتبه ، فيقول : (٢١)

هم مؤنسون وآلافٌ غنيتُ بهم فليس لي في أنيس غيرهم أربُ
فأيما أدب منهم مددت يدي إليه فهو قريب من يدي كِثبُ
حتى كأني قد شاهدت عصرهم وقد مضت دونهم من دهر هم حِقَبُ

إلى جانب ذلك فقد كان للمجالس الأدبية في البلاط العباسي أثر في هذا التحول الذي يعد بمثابة المشهد الأدبي ومكان البيان – المنهاج – الشعري والنثر الفني،إذ يحضره عليَة القوم من رواة ونقاد ولغوي العصر(٢٢)،فضلا عن ذلك الحضور الغنائي والموسيقي بمدرستيه الكلاسيكية والحديثة بإمامة إبراهيم الموصلي وتبعه من بعده ابنه إسحاق وعريب ، وكذلك الحال بالنسبة للخط العربي الحديث الذي تزعمه إبراهيم بن المهدي وأخته علية وجحظة وآخرون ٠

وقد كان للمدرستين أثر بالغ في لغة ووزن القصيدة العباسية ٠ إذ تجاوز شعراء العصر المعاني والألفاظ القديمة ، واتجهوا بقصائدهم إلى رقة الألفاظ ورشاقة الأوزان وفتق أكمام المعاني والأفكار التي تسير وروح العصر ٠ من ذلك ما يروى عن موقف الخليفة العباسي المنصور من الشعراء الذين وقفوا ببابه لمدحه ، وبعد

أن أوجزهم حاجبه الربيع لما يريد أن يسمعه الخليفة انصرفوا ولم يبق إلا إبراهيم بن هرمة ، إذ انشد الخليفة قائلا(٢٣):

له لحظاتٌ عن حفافيٍّ سريره إذا كرها فيها عذابٌ ونائلٌ

فاستعذب الخليفة هذا القول من الشعر ،وقال : هذا عين الشعر ،كونه ينبذ القديم ٠

وكذلك ما رواه ابن سلام الجمحي عن ابن طريح بن إسماعيل الثقفي الشاعر المخضرم ، إذ دخل على الخليفة المهدي وسأله أن يسمع منه فقال المهدي :ألست الذي يقول للوليد بن يزيد؟

أنت ابن مسْلنطح البطاح وكم يطرقُ عليك ألحني ولولجُ

والله لا تقل لي مثل هذا أبدا ، ولا أسمع منك شعرا وإن شئت وصلتك (٢٤)٠

وسبق للخليفة المهدي أنه أنشد قول الشاعر :

واستقلت رحالهم بالرديني شرعُ

فقال : كنت اشتهي أن يكون هذا الغناء في شعر أرق من هذا ٠ اذهبوا إلى يوسف الصيقل حتى يقول فيه ، فقال (٢٥):

لا تلمني أن اجزعا سيدي قد تمنعا

وابلاني أن كان ما بيننا قد تقطعا

وكان لمعالم الاستقرار والإنتعاش الإقتصادي والامتزاج الحضاري والقومي أثره الواضح في نشاط الحركة الموسيقية ومجالس الغناء ، مما أدى إلى تطور

الموسيقى وآلياتها ووفود آلات وألحان قد تولدت عنها ألحان جديدة أثرت في البناء الموسيقي للعروض العربي ، مما أدى إلى إحياء أوزان كان قد سجلها الخليل في دائرته العروضية ولكن ليس لها أصل استخدامي في الشعر العربي القديم ، لذا أخذ الشعراء العباسيون ينظمون بأوزان قصيرة لم تكن شائعة في النظم كوزن

المضارع والذي أجزاؤه ((مفاعيلن))وتحذف تفعيلته الأخيرة ، كقول أبى العتاهية (٢٦):

أيا عتبة ما يضر ك أن تطلقي صفادي

ونظموا في بحر المقتضب وأجزاؤه ((مفعولان مستفعلن مستفعلن))وتحذف تفعيلته الأخيرة ، كقول أبى نؤاس(٢٧) :

حامل الهوى تعب يسخفه الطرب

إن بكى يحق له ليس مابه لعب

ولم يكتف الشعراء العباسيون بهذا بل عمدوا إلى استحداث أوزان جديدة ، وعملهم هذا كان ضربا من الفكاهة والتظرف ، ونظموا أيضا بأوزان مهملة لم

تعرف من قبل (كالمستطيل والممتد والمتوافر والمتئد والمنسرد ٠٠٠) ، كما فعل رزين العروضي وأبو العتاهية (٢٨)٠

وكذلك الأمر بالنسبة للقوافي ، فقد عمدوا إلي التجديد في القوافي فاستحدثوا (المزدوج والرباعيات والمسمطات)(٢٩)٠

مما تقدم تبين لنا سعة التطور والاستحداث وما تركه ذلك على الساحة الثقافية في أوليات أيامه ، وانعكاسه على الصراعات الثقافية التي يقودها أنصار الجديد والقديم يشترك فيها علماء اللغة والفقهاء والرواة والشعراء ٠ وكان من نصيب المحدثين بحسب السنن الحضارية أن تثبت مدارسهم على أيدي كتاب وشعراء ابتدعوا ودافعوا وثبتوا أصول المدرسة الحديثة ،ومنهم على سبيل المثال لا الحصر ؛مسلم بن الوليد وبشار بن برد وأبو نؤاس وأبو العتاهية وأبو تمام والبحتري ٠٠٠

و هذه الطائفة لم تحتكر مدرستها بغداد حاضرة الخلافة العباسية بل كان في رحيلهم ورحيل قصائدهم بين الحواضر الإسلامية كالشام ومصر ومكة والمدينة والأندلس وخراسان أثر في نشر الثقافة العربية التي أشرنا إلى بعض من جوانبها وطبيعتها ٠

حال الشعر في اليمن

ولمقارنة حال الشعر في اليمن بكل ما تقدم علينا بالحال الكشف عن أمر الأدب بشكل عام والشعر بشكل خاص في اليمن ٠ فإنها كما يقول عنها بروكلمان : (كانت بلاد اليمن في دولة بني أمية واوائل دولة بني العباس ، من البلاد القاصية النائية عن مجرى الأحداث ، فلم يقع بها كثير مما يذكر في التاريخ) (٣٠)٠ وقد أسلفنا إن اليمن انعزلت عن الخلافة الأموية سنة ١٢١هـ، أي قبل سقوطها بأحد عشر عاما ، وكذلك الأمر بالنسبة للدولة العباسية ، التي ايدتها اليمن ودانت لها منذ مجيء العباسيين سنة ١٣٢ هـ ،وحتى سنة ٢٠٣ هـ / ٨١٩ م ٠ ولكن هذه المدة من التاريخ اليمني تعد حقبة مرعبة وصراعات دامية ، والتي يسميها البردوني بـ (عصر الخطورة) (٣١)٠ إذ أن الولاء اليمني كان مزعزعا لمركز الخلافة العباسية ومصدر قلق شديد بالنسبة لها ، لذا توالى على إمارة اليمن من العباسيين أكثرمن أربعين عاملا ، وكان من أهم ولاتها ، معن بن زائدة الشيباني (١٤٠ هـ) ،ومحمد بن خالد البرمكي (١٨٣ هـ) والذي استمرت ولايته أحد عشر عاما ، وآخرهم محمد بن عبد الله بن زياد والذي اختط مدينة زبيد سنة (٢٠٢ هـ) في عصر المأمون (٣٢) ٠ فضلت اليمن بين ولاءات مختلفة أو دعوات إلى الاستقلال والانفصال وهذا ما حصل بالفعل سنة (٢٠٣ هـ) ٠ وهذه العزلة كانت عزلة سياسية ولم تكن عزلة أدبية٠ إذ إن الامتداد الشعريبقي محافظا على كلاسيكية القصيدة العربية ، فالشاعر اليمني واصل الامتداد الشعري مع الشاعر الأموي ،ومن بعده الشاعر العباسي ٠ ،إخلاصا لأصالة وعراقة وبداوة القصيدة العربية ومحافظتها على بنائها في الشكل والمضمون ، بالرغم من التبكير في التجديد ولو بشكل محدود في أواخر الدولة الأموية عند بعض الحواضر كالشام ومكة والمدينة والبصرة ، وتلك سنة الأدب فهو ابن الزمان والمكان ومرآة صادقة لا تخطيء في عكس لغة وتطور وذوق هذين الظرفين.

وإذا ما عدنا إلى صنعاء كحاضرة أخرى من حواضر الإمبراطورية الإسلامية ، فالأمر يختلف فيها إلي حد ما ٠ إذ اتهمت بضعف النشاط الشعري والنثري وهذا الأمر أكده الدكتور شوقي ضيف ، معللا ذلك بالقول : إن أهل اليمن لم يسهموا في الشعر الجاهلي ولا في الشعر الأموي ،وأظنه قصد بذلك الذين، استمروا فيها – اليمن – ولم يهاجروا منها ومكثوا للعيش فيها زمن الجاهلية ٠ أذن فما قوله في عبد يغوث الحارثي المزامن لامرئ القيس ، علما أن – امرئ القيس يماني النسب نجدي الشاعرية – ونصيب الأكبر وذو الرمة وأبى النجم وعمرو بن معد يكرب ونشوان الحميري ، وغير هم الكثير من اليمانيين في العصر الأموي ٠

إلى جانب هذا يمعن الدكتور ضيف في المغالاة أكثر حيث يقول : ((ظلوا يجرون حياتهم على نحو كانوا يجرونها قديما ، وأيضا فانهم ظلوا – غالبا– يستخدمون للغة الحميرية ، وأن لغة قريش أو لغة القران الكريم أخذت تؤثر فيهم إلاّ أنه كان تأثيرا بطيئا)) (٣٣). ومن يمعن النظر في آراء الدكتور ضيف يجد أنه يقر بتخلف اليمن في النتاج الشعري والنثري.

أما الذي نراه أن غالبية شعراء العربية آنذاك ينتمون إلى أجذام يمنية ولعل منهم من عاش بعض حياته في اليمن كوضاح اليمن ، وعمر بن أبي ربيعة ، أو تربى في بيت يمني مهاجر ، وهذا يمثل الكثير من شعراء البصرة والكوفة والشام والأندلس ٠ إلاّ أن الدكتور ضيف يطلق حكما على هؤلاء الذين برعوا في الشعر فأجادوا فيه ، إنما هم منفصلون عن بيئتهم وبالتالي فهم أبناء البيئات الجديدة (٣٤) ٠

ونرى أن هذه الأدلة التي جزم بها الدكتور ضيف ، ماهي إلا سدٌ لشواغر لم تدرس بعد عنده ولا عند الكثير من مؤرخي الأدب المحدثين ، وإن العجالة أدت إلى أن يغمط نشاط حاضرة من حواضر هذه الأمة التي حافظت على التقليد بحكم أصولية مدارسها اللغوية والفقهية التي ناهظت التحديث الذي حصل في بغداد ٠ إذ لم تصمد منابر الفقهاء ومجالس اللغويين طويلا أمام سرعة وقوة المدرسة الحديثة على مستوى الشعر والنثر ٠ ويشاطرنا القول الكاتب اليمني أحمد الشامي ، إذ يلقي بلومه على الذين أرخوا للأدب العربي أمثال الرافعي والزيات وأحمد أمين وزكي مبارك وطه حسين وجرجي زيدان ٠٠٠ من أنهم لم يتطرقوا لعلماء وأدباء وشعراء اليمن إلاّ نادرا ٠ ويفصح هذا الكاتب القول أكثر ، فيقول : ((لعل الأدب اليمني هو الأدب الوحيد بين آداب اللغة العربية ، الذي لم يعن به – أدباء اليمن أنفسهم ، ولا أدباء العربية ومؤرخي آدابها في الأقطار العربية الأخرى – العناية التامة بل حتى القليل منها)) (٣٥) .

إن المداخلات في التاريخ اليمني العباسي ، انعكست على الأدب اليمني بشكل عام والقصيدة بشكل خاص فجعلها تراوح في مكانها من ناحية الأسلوب والشكل وللغة والمعاني ٠ فواكبت أثر القصيدة الجاهلية في أصالتها ، والموضوعات الجديدة التي فرضها الإسلام ومستجداته الموضوعية سواء أكان هذا في صدر الإسلام أم في العصرالاموي٠أما الاتجاهات المولدة التي تأثرت بها القصيدة العباسية ،فلم ينعكس تأثيرها على القصيدة اليمنية ،في زمن ولائها للعباسيين سياسيا.•

أما الاتجاهات العلمية الأخرى ، فلم تتخلف اليمن ثقافيا ، فبقيت مركزا ثرا للعلم والمعرفة ،يقصدها القاصي والداني من العلماء وطلبة العلم ، فقصدها الإمام الشافعي وذلك كان سنة (١٧٩ هـ)٠وكذلك قصدها الإمام أحمد بن حنبل سنة (٢٠٠ هـ)والذي أخذمن عبدالرزاق بن همام الصنعاني(ت٢١١ هـ)(٣٦) ٠

وهذا مفاده أن اليمن كانت مكانا للفقاء والمفسرين والمحدثين وقراء مازالت اسماؤهم لامعة في طبقاتهم،ومنهم القاضي إسحاق الدبري،ومعمر بن راشد(ت ١٥٣هـ)موسى بن طارق اللحجي ، وبشر البلوي ، وعبد الرزاق الصنعاني،الذي مر ذكره سابقا،والمصنف يحيى بن الحارث الذماري (ت ١٤٦ هـ) (٣٧)٠

فضلا عن الشعراء الذين عاشوا في ظل التبعية اليمنية للخلافة العباسية من سنة ١٣٢ هـ – ٢٠٣ هـ ، وطبيعة شعرهم واتجاهاتهم ٠ اذ لم تسمح هذه المدة الزمنية بالاستقرار الكافي ، ولم يدانيها ترف الحياة التي تعيشها حاضرة الخلافة العباسية بغداد وبقية الأمصار المتاخمة لها ٠ هذا الأمر الذي جعل من الشاعر اليمني أن يحافظ على بناء القصيدة القديمة من حيث البناء الشكلي والموضوعي.

موازنات في الموضوعات الشعرية

حافظ الشاعر اليمني في نسجه الشعري على الأغراض التي تواكب الظروف البيئية وما يتعلق بها من أحداث ،كون الشاعر ابن بيئته يتأثر بما يعيشه فيها ،وتلك أهم سمة يتسم بها شعرنا العربي القديم ٠

• يقول الأستاذ محمد ألا كوع : "إن اليمن حصينة بجبالها كحصانة أهلها وبعدهم عن اعتناق الآراء والأفكار الفلسفية فقد عاشت منذ ظهور الإسلام إلى عصر المؤلف البلد الوحيد المحافظ على دين الإسلام الصحيح والآلام وحده ، فلا تمذهب ولا أفكار ولا عقائد غير القرآن والسنة النبوية ٠ ولكن ضعف الدولة العباسية أدى إلى دخول شتى الأفكار والفلسفات والفرق والنحل من خلال الأمراء واتباعهم من قضاة وشعراء وكتاب وخدم وجواري ٠ ويعتبر القرن الثالث الهجري عهد دخول اليمن إلى باب عهد جديد من التداخل والأخذ والعطاء من كل طيب وخبيث "٠ الإكليل : ج١ / ٣٩ – ٤٠ ٠

وهذه الظاهرة قد لا نجدها عند الشعراء العباسيين أخص منهم الذين أحدثوا ثورة في كثيرمن اتجاهات القصيدة العباسية ،وما تعيشه من تخيلات وتهويمات وأبعاد فلسفية ، أبعدت الكثير من الأغراض الشعرية عن مفاهيمها القديمة واتجهت بها الى عوالم جديدة ٠ لذا بقي الشاعر اليمني يدور في فلك أغراض الشعر المعروفة قديما ؛ كالحماسة ،و الفخر القبلي والعرقي ، ومكارم الأخلاق ، والغزل ، والانشداد الى تصوير الفتن والمآسي التي كانت تحل باليمن ، هذا من جانب أما الجانب الآخر هو التزام الشاعر اليمني بالمحافظة على بناء القصيدة القديمة شكلا ومضمونا ، ومن ذلك ما قاله الشاعر عمرو بن زيد الغالبي وهو سيد بني غالب جميعا (ت ١٤١ هـ)، في قصيدة له مستنجدا بابن خالته جرير (٣٨) :

ياخولةَ هلْ تجمعُنا الدارَ بعد نوى أم هل يعودُ زحافُ واصلَ الرحمِ
أمسى جريرٌ يحيل الحيَّل من غررٍ ما أن يراقبَ فينا صرخة الـدمِ•
فأمست منازلنا بالجو شاسعة ونحن اخوتكم في نبعة الكرمِ
من سر سعد بن سعد في مركبها أهل الحفائظ بعد العسر في القرمِ
وحيّ قيسٌ يسود الذل سادتنا قد امسكوا بعرى الأنفاس والكظمِ
قرب الله قرباكم فليس لكم عطف جميل بمحمود من الشيمِ
انتم زعمتم بأعلى ذروة رفعت من سر خولاني منسوبون بالكرمِ
ونحن في حي قيس يبرمون لنا سوء الحديث ونخشى زلة القدمِ
ظعائن من ذوي خولاني رتبها طيب العفاف شربن الذل بالرغمِ
قطعتم حرمة من حقهن فما ترعون قربى ولا نصرا لمظلمِ

والملاحظ على مطلع هذه القصيدة ، أن الشاعر قد أقحم في قصيدته المطلع الغزلي وكان من الأولى به أن يباشر موضوعه مباشرة ٠ إلاّ أن التقليد والمحافظة على بناء القصيدة العربية القديمة ، قد دفع بالشاعر إلى هذا المطلع الغزلي الأمر الذي لفت انتباه النقاد القدامى–فيما يتعلق ببناء القصائد العربية الأولى – فوجدوا أن الشعراء اختطوا لانفسهم أسلوبا التزموا به وفرضوه شكلا وبصورة طوعيه لاقسرية على من جاء بعدهم من الشعراء ٠كذلك نجد الاستقلالية في موضوع البيت الواحد ، وكما هو في البيت الأول والثاني من قصيدة الغالبي ، فكل كيان مستقل بذاته ليشملها جرس موسيقي خارجي وإيقاع داخلي للألفاظ في انسياب قديم ٠ وكذلك للشاعر الغالبي أنموذجا آخر في الفخر ، فيقول مفتخرا بأبيه (٣٩):

أبونا الذي أحمى السروج بمأربٍ وآلت إلى صراوح♦ يوما نوافلهْ
لسعد بن خولان رسى الملك واستوى ثمانين حولا ثم رجت زلازلهْ

ويقول في هجاء محمد بن أبان الخنفري وهو يعيره بجده لامه الاصبغ ، فيقول (٤٠):

فلا تفتخر بقوم لست منهم وجد في محل بني كالعدِ

• جاء ذكر البيتين الأول والثاني كما أوردهما الهمذاني في صفة الجزيرة ص ٨٩ ، وتاريخ اليمن الفكري ، ص ٥٩ ، كما هو مذكور في أعلاه ٠ أما صاحب الإكليل
فقد أوردهما على النحو الآتي :

يا خول هل تجمعنا الدار بعد نوى أم هل زمان واصل الرحم
أمسى جرير يجد الحيل من عشر ما أن يراقب فيهم حرمة الذمم

ونرى إن رواية صاحب الإكليل هي ألا صوب في المعنى والتركيب ٠

♦ صراوح تقع في خولان الدنيا التي تسمى بني بهلول ويقع في الجنوب الشرقي من صنعاء بمسافة ثلاث ساعات ، كذلك هناك صرواح أخرى تقع في ديار أرحب شمال صنعاء ٠

لئيمُ الأمّ والأخوال فسلْ ينادي في مناهل أهل نجدِ
له صنم يعظمه إذا ما يهينهم عنده وأليه يهدي
فلما عاين الثعبان ولّى جفول الهيق عن رألة بخدي
يلوك لسانه فشلا ويبدي كلام معاند لسبيل قصدِ
بنو حجر هم شادوا المعالي وهم أهل التحمي والتفدي
فخير القوم حجر ثم يعلي وعمرهم فاوراهم بزندِ
واصبغ من ركب المطايا إذا سارت مطاياهم بوفدِ

وللشاعر عمرو بن يزيد قول في اخوته من سروم – وهم سروم خولان وكانوا يسكنون في الشرق الجنوبي من صعدة – مفتخرا بنسبه ، فيقول(٤١):

سراة بني جبر ويسنم أخوتي وحيا معيش من سلالة غالب
وآل سعيدان نسبت أباهم إلى حسب في جذم حمرة ثاقب
هم وارثوا مرقي العلا من أبيهم وحي بني شبل فخير الأقارب
أو لاك بنو السادات من حي غالب إذا اعتقلوا منها رفيع المناكب

وكذلك لابنه الحارث بن عمرو قول في الموضوع نفسه ، فآلينا أن نذكره هنا كونه ينتسب إلى الحقبة الزمنية التي نحن بصدد دراستها ، فيقول(٤٢):

لنا الدار في تضراع باق رسومها بها كان أولاد الحماة الخضارم
سراة بني جبر وحي معيشها لباب الباب من حماة أكارم
ودار بقيوان لنا كان عزها توارثها نسل الملوك القماقم
ويسنم دار العز من دمنتي دفا إلى اسفل المعشار فرع التهائم
ودار بكهلان لشبل أخيهم دعامة عز من تلاع الدعائم
وآل سعيد حمرة غالبية بسفحي سروم بين تلك الرجائم

إلى جانب ذلك ينشد الحارث قصيدة أخرى مكملا بها قصيدة أبيه بعد أن قتل في فتنة الربيعة ، إذ لم يمهله مقتله أن يكمل ما بداء به ،فيقول الحارث(٤٣):

سلي تخبري يا هند هل عفت مشوبي وهل عافه قومي بجنب الأخاشبِ
عشية سرنا حاشدين وقد بدت من الشمس عينا أو توارت بحاجبِ
وقد حشدت فيها ذؤابة سعدها وحيا عدي بالقنا والكتائبِ
صبحناهم بالموت في عقر دارهم وقد ألح ضوء الفجر من كل جانبِ
فدسنا بني عوف بزور وكلكل وملنا عليهم ميلة بالمناكبِ

وكان لهذه الفتنة أثر بالغ على وحدة القبيلة ، وخصوصا بعد أن تولى علي بن غالب سيادة القبيلة ، والذي نهاه قومه عن تولي تلك السيادة فلم ينته عنها ،

الأمر الذي أدى بهم إلى ترك البلاد والهجرة إلى الحجاز ، وفي ذلك يقول الحارث (٤٤) :

جرتْ لي في الملامة آل حربٍ ولجوا في القطيعة والتنادي
وسلوا السيفَ في سادت على قوم بلا ذنب أتوه ولا اعتمادِ
فقلت لهم وكان النصح مني دعوا قوما لهم عزٌّ ونادي
فلا ثرة لديهم قدّموها وهم ركنا لنا وارى الزنادِ
فقادهم الفتى عمرو بن زيد وكل القوم أسرع في الفسادِ
وقتالوا سبقَ آباءٍ كرام وعذب مياهه غير الثمادِ
فأجلّوا معرقا وبني شهاب وحلوا في السهول وفي النجادِ

ونحـوا الخـنفرين وآل عــوف بقصوى طـود أو بــرك الغمادِ
فمهــلا بآل سعد لاتحــلوا وقومـوا بالجـميل وبالــسدادِ
فخـالـف رأينا منـهم رجـال وقالـوا أين ذاك مـن الــرشادِ
فـعدن إلى الجمــيل بفضل رأي ولم أركـنْ إلى قــول الأعـادي
وقد خلفتـــموني فاشـربوها مصـردة تجنّ علـى الفـؤادِ

لقد اتسمت هذه القصيدة بطابع الحكمة والنصح التي أسداها إلى قومه ، من دون أن يلتفتـوا أليـه ، وهـذا الأمر يقودنا إلى جعل هذه القصيدة معادلاً موضوعيًا لقصيدة دريد بن الصمة التي أسدى فيهـا نصحه إلى بـني هوازن ، لذا يمكن لنا وصف القصـيدة بالدريديـة*التي يظهـر فيهـا الشـاعر ملامتـه في الفتنـة الـتي اعتزلهـا ويرحل إلى زبـيد ويمكث فيهـا وقتـا ثـم يأخـذ بـه الارتحـال إلى بـني هـلال فيلحـق ببـنتي غالـب إلى يسـوم وعروان ، وكان يسأل ويستعطف جرير بن حجر في العودة فرق له قلبـه فأعـاده ، لـذا يصـور لنـا هـذا الحـال قائلا (٤٥):

فأصبحت قد ودعت قومي ومعشري وحالفت هما ما أزال أصـاولـهْ
رهـينة ذل بـين تـروج ومــكة كذلك من قامـت عليه قبائلــهْ
فوا الله ما خـليت د اري بمـعشري بطوع وربّ البغي والعرش خاذلـهْ
أقارع كـيدا مـن سلـيم وعامـر وحـقدهم تغلـي عليه مراجلـهْ
عـدو يغـض الـطرف عـنا تمقتا ويخـبر عـمّا في الـفؤاد تغافلـهْ
فـادفـعه عـني بـرفق وحــيلة وقـد أخذت في القلب من دلائلهْ
فـمن مبلـغ خـولان عـني بأنـني رهـين الـعدا تجـري عليّ عواملهْ
يـبين لي فـي كل يـوم مـكـيدة ويطـحن جـسمي حراكه وكاهلهْ
ويبلغ مـني قـوله مـايـسوغـني ويعلـم إن قـد ساءني فـاجاملـهْ
فـيا لـيت شـعري هل أبيتن ليلة وبحجر بني حــي حوتني قوابلــهْ
أبى قـومنا إن ينـصفونا وجـردوا لنا حـد سـيف اخـدمته صياقلـهْ
فمهلا بني عـمرو ربيعـة سـعدها فـهذا لكـم حـول وبعده قابلـهْ
فـقد شحذتها حـي بكـر بن وائل لاخوتها فاستقل الـجهل حاملـهْ
فبار جميع للـقوم وانـهد عزمـهم وكان لهـم بـحر البلاد وساحلـهْ

والملاحظ على هذا النمط من تلك القصـائد كأنهـا قـد أنشـدت في عــصر سـبق عصـر إنشـادها ، ولـو طلب في نسبتها إلى واحد من العصور الأدبية لوجدنا إنها أقـرب إلى عصـر شـاعر مـا قبـل الإسـلام ، والـدليل بيِّن من قراءتها • إما القصيدة التي أنـشدت في حـاضرة الخلافة العباسية بغداد ، فقد تحايلـت علـى المطالـع مابين الـتمرد والـهجوم والاسـتخدام للرمـز الفلسـفي ، إذ أصـبحت منـبرا تقـرأ منـه اتجاهـات الحيـاة ، أو أحيانا يلبسها ثوب الحضارة صراحة ورمزا وتطويرا فابعدها بذلك عـن كـل ملامحهـا –القديمـة –وتواصـلت الأبيات فيها بتناغم مع الحفاظ على وحدتها الموضوعية ،وكذلك أبعدها عن استقلالية البيت (أي القصيدة).

وكان شـعر الـفخر والتباهي بالـعرق والنسب من الموضوعات الشعرية التي شكلت اتجاها شعريا مهما في حياة شعراء اليمن ، ومن ذلك قول أحد عظماء رجالات خولان محمد بن أبان الخنفـري المتوفى ((١٧٥هـ)) مفتخرا بأصله (٤٦) :

وأنا لمن ريحانة العرب أصلنا وطينتها من تلك أزكى وأطيبُ
ونحن ورثنا ملك هود وعلمه وأورثناه بعـد قحطان يعـربُ

وكذلك هو القائل مفتخرا بأخواله من بني سعد:

أودى الزمان بميمون فاذهبه والقرم حجر بن زيد غرة اليمن

وفي أخرى يقول :

وأنا ابن خنفر في صميم أرومها وتحف بي يوم الكريهة مغرق

ويقول في بعض من أخواله أيضا :

من نبعة الجود أن عدت سوابقها عمرو بن حجر عاقر البدنُ

وإلى جانب شعر الفخر فقد شكل شعر المديح الجانب الآخر في شعر الخنفري ، ومن درر مدائحه ما قاله في أخواله ، ومن ذلك قوله في مدح جرير بن حجر بن سعد سيد بنى سعد :

جرير بن حجر ساد من كل قبله أنار له زند الحجا حين يقدحُ
توارثه من والد بعد والد وفضل جرير منهم ثم ارجحُ
وما زال منهم سيد وابن سيد يسوس برفق ما يسوس فينجحُ
بني العز حجر في أرومة مفرق وسيدها منهم كهول فيرجحُ
وحجر بني سعد كان رب قضاعة وعمرو بن حجر فهو أعلا واسمحُ

إلى جانب النزعة القومية الطافحة في أكثر تلك النماذج التي كنا عرضنا لها سابقا ، هناك نزوع وطني إلى الأرض اليمنية ، إذ يجد الشاعر نفسه أنه أزكى طينتها والوارث الشرعي لعلم هود وقحطان يعرب ، وهذه خصوصية يمنية لا تنطبق على أي مكان آخر . أما الطرف الآخر المناقض الذي نجد صداه عند بعض شعراء بغداد ، فالأمر مختلف إذ أصبح النزوع إلى المجتمع البغدادي أكثر منه إلى الاتجاهات القومية أو القبلية وقد مثل هذا الجانب ؛ أبو نؤاس شاعر اللذة وابن الرومي شاعر الهجاء والصور الكاريكتارية الشعرية ، والبحتري شاعر المجتمع ، ومروان بن أبى حفصة العباسي النزعة ٠ إلى جانب ذلك هناك اتجاها آخر كان متطرفا منحته الحرية العباسية المطلقة المستغلة إلى الحد الذي جعل بعض من الشعراء أن يعلن فخره بغير العرب والطعن في العرب، بأوسع ما نتصوره من دلالة أو باتجاه سياسي ، كما هو الحال عند بشار بن برد وأبى نواس (٤٧) ٠

ومن جميل شعر الفروسية المتبقي في القصيدة اليمنية ذلك ما قاله الخنفري مفتخرا (٤٨) :

وقد علمت عليا قضاعة أنني جري لدى الكرات لا أتورعُ
أخوض بر محي غمر كل كتيبة إذا الخيل من وقع القنا تتسكعُ
فكم من كمي قد تناولت نفسه وآخر يدعو بالهوان ويضرعُ
إذا سرت يوما في رعيل كتيبة أصرع أقراني مخافة أصرعُ
وأعلم إن المجد في بذل مهجتي فابذلها للطالبين وأسرعُ

تنقلنا هذه القصيدة بإيحاءاتها ودلالاتها إلى عصر الفروسية وعصر القصيدة الفارسة التي تصور للمتلقي حركة ومصارعة الحياة في مكابدة ، وكأن القصيدة قد نسج ألفاظها شاعر عنتري ، أرتبطت حياته بالرمح والخيل والمنازلة وتحدي الموت بلغة يقف بها الزمان على لسان شاعر فلا يكاد يتحول إلى العصر الذي عاش فيه وهو العصر العباسي ٠ وقلما نجد في العصر العباسي ما يستشهد به للنحو – هذا ليس قصور في الشاعرية وانما لتقدم العصر عن عصر الاستشهاد –باعتبار إن لغة العصر أصبحت لغة مولدة دخل عليها الكثير من عناصر التوليد والنحت والدخيل ،فلا يلتفت أليها علماء النحو واللغة ٠ وعلى الطرف النقيض من ذلك الأمر ؛ إن أهل اليمن يجدون في الشاعر اليمني المحافظة على نقاء وصفاء اللغة يتبعه في ذلك أيضا نقاء العروبة ، فلا يتردد علماء اللغة في اليمن من الاستشهاد لمسألة نحوية بأخذ الشاهد النحوي من شعر أحد شعرائهم ، فمن منا لا يعرف الشاهد النحوي في قول يحيى بن زياد الحارثي الكوكباني (٤٩):

أَهَابُكِ إجْلالاً ،مَا بِكَ قُــدْرَة عَلَيَّ وَلكِنْ مِلْءُ عَيْن حَبيبتهَا
ومَا هَجَرَتْكِ النفسُ إنكِ عندها قليلٌ ولكنْ قلَّ مَنكِ نَصِيبُهَا

والشاهد النحوي في هذا البيت هو مسألة تقديم الخبر على المبتدأ ، حيث قدم الخبر (ملء عين) على المبتدأ (حبيبها) لاتصال المبتدأ بضمير يعود على مُلابس الخبر ، وهو المضاف إليه ٠

أما الذي يعيشه شاعر حاضرة بني العباس – بغداد – أمثال بشار بن برد وأبي تمام ومسلم بن الوليد وأبي نواس ٠٠٠ وخصائصهم الفنية والفكرية وعنصر الحداثة المتجددة ، ما هو إلاّ حضارة أتاحت له قراع الكؤوس ومناغمة الوتر ٠ فكانت معارك الشاعر البغدادي ومنازلاته تدور في مجالس تعبق بأفانين الحضارة التي فعلت وتفاعلت مع الأسلوب واللفظ والمعنى ، فراح يحاكيها بكل زخارفها٠

ولتعزيز ما ذهبنا إليه من قول سابق نذكر أنموذجا آخر لقصيدة الفروسية لشاعر آخر ، هو أحمد بن يزيد القشبي شاعر صعدة وفارسها ، وهو من معاصري وأصحاب الشاعر محمد بن أبان الذي سبق وأن مرَّ ذكره٠ ويعد القشبي رائد القصة الحربية في القصيدة اليمنية ، ومن شعره تلك القصيدة التي يلوح بها ببشائر النصر لصاحبته (حمدة) فيقول (٥٠):

فمن مبلغ عني الشريف بمن زرعت وسادة قومي من سرات بني عمرِ
بأنّا رمينا عن قسي عداوة فأيدنا الله المهيمن بالنصر
وما النصر إلاّ الصيدُ مفتاح بابه ومختطم من حدث النفس بالْفرِّ

ونجد أن اتجاه المحافظة أصبح واضحا في قصيدة الشاعر أحمد بن يزيد ، إذ نسجها على منوال معاصريه من أتباع مدرسة المحافظين ، ولو لا وجود الألفاظ التي تشير إلى إسلامية القصيدة (أيدنا الله المهيمن بالنصر) لكان طابع القصيدة كسابقتها في النهج والمطابقة ٠

أما موضوعات شعر الغزل فشأنها شأن المواضيع الأخرى التي تحاكي واقعا غير الواقع البغدادي من حيث الطهارة والعفة ، التي كنا قد وجدناها عند شاعر ما قبل الإسلام حينما يريد أن يتعفف بلغة رصينة تقليدية يطالعنا فيها بمقدمة غزلية يناجي فيها اثنين من صواحبه كالعادة ، ويحدد الموقع الجغرافي لمكان الأحبة الغابر ممثلا ذلك بقول الخنفري (٥١):

خليليَّ مُرا مصعدين فسلِّما علي منزل بين السوير وفاضحِ
ألمَّا به ثم اشجعا لي واعتبا علي طفلة غراء ليس بناقحِ

فلا غرابة على شعر ما قبل الإسلام إن وضعنا مطلع هذه القصيدة اليمنية العباسية مع مطلع مطولة لأمرىء القيس البائية ، وجاء هذا التوافق والتواصل والتلاقي بعفوية غير مصطنعة عند الشاعر اليمني مع الشاعر أمرىء القيس ، إذ يقول (٥٢):

خليليَ مرا على أم جندب نقضي لبنات الفؤاد المعذبِ

ويستمر الخنفري متواصلا مع مطلع غزليته ، إذ يقول:

بها هام قلبي واستثارت صبابتي وشابت بها قبل المشيب مسائحي
وقولا لها : إن الفراق مضنة بصرم خليل أو بمدخل كاشحِ
وإني لم انس منها كمثل ما تناست منه بالنوى والتنازحِ
كأني بها من بين ستر وكلة كبدر بدا من سائح نحو سائحِ
فأدنو إليها والركب مناخة فاكرم بها من جاثم ومصافحِ

بينما نجد شعر الغزل في بغداد يغرق في مادية وحسية متناهية ، إلاّ عند القليل من الشعراء ، ولعلّنا نجد المسافة بين القصيدتين في صنعاء وبغداد واضحة في غزل أبى نؤاس الذي فتق أكمام الألفاظ والمعاني والأوزان المبتدعة ، ومن ذلك يقول (٥٣) :

وذات خدٍ موردٍ كوهية المتجرد تأمل العين منها محاسنا ليس تنفدُ

لذا فإن هناك قصائد قد تجاوزت حدود التقليد وزمن الاضطراب واستمرار عصر الفروسية ، وكذلك قد تجاوزت حدود زمنها، وهذا نجده عند يحيى بن زياد

الحارثي إذ كونت قصيدته إحدى مختارات (أدونيس)في كتابه"ديوان الشعر العربي"،وهذا دليل على إن هناك قصائد تحدت حدود زمنها،والذي يقول فيها (٥٤):

سلبت عظامي لحمها وتركتها مجردة تضحي إليك وتخضرُ
وأخليتها من مخها وتركتها أنابيب في أجوافِها الريحُ تصفرُ
إذا سمعت باسم الفراق تقعقعت مفاصلها من هول ما تنفطرُ
خذي بيدي ثم ارفعي الثوب وانظري بي الضر جسدي لكني أتسترُ
فما حيلتي إن لم تكن بك رحمة علي ولا صبر لدي فاصبرُ

وفي النص ما يوحي بحداثة اللغة والاتجاهات الفكرية التي ماجت بها بغداد والبصرة والكوفة التي تحدت عند بعضهم الاعتقادات والمفاهيم الدينية والاجتماعية ومثالية القصيدة وأساليبها شكلا ومضمونا ، لذا يمكن أن نضع للحارثي شأنا لايقل شيئا عن شأن بشار الذي عاصره زمنا وابتعد عنه مكانا والذي وصلت به حريته أو بالأحرى شعوبيته إلى حد القول : (٥٥)

إبليس افضل من أبيكم آدم فتيقضوا يا معشر الفجارِ

إلى جانب ذلك ما فعله أبو نؤاس الذي تحدى القواميس الشعرية وقوانينها بحريته وفضاضة تحديه إلى حد القول :(٥٦)

لا تبكي ليلى ولا تطرب إلى هند واشرب على الورد من حمراء كالوردِ

ويقـــول أيضا :(٥٧)

قل لمن يبكي على رسم درس واقفا ماضر لو كان جلسْ

ويستوقفنا في هذا الاتجاه شاعر آخر وهو أبو بكر بن مرداس الصنعاني الذي اجتاز حدود اليمن بحداثة تحتاج إلى أن ترحل مع حداثة النسج والمعنى والشكل والمضمون في القصيدة البغدادية ، إذ رحلت شهرته إلى بغداد وكان أبو نؤاس راوية له وتلك شهادة نقدية من سيد للحداثة والمحدثين ، ومن بديع قوله : (٥٨) يا اخوتي إن الطبيب الذي ترجون أن يشفيني من سقمِ
وما آل جهدا ولكنه عن علم مابي من سقام عمي

والحب لا يشفي بأيارج ولا بترياق ولامحجمِ
إلاّ بلثم الحبيب أو ضمه ومص ريقين فما بفمِ

من الملا حظ إن القصيدة قد رصعت بألفاظ دخيلة (أيارج) ، (ترياق) ، فكيف نفذت إلى شاعر صنعاء ؟ أهي من زمن الحكم الفارسي لليمن ؟ أم هي من ومضات بغداد ؟ بالإضافة إلى ذلك إنها قد تميزت بسلاسة الأسلوب وسهولة في المعنى واللفظ وميوعة الحضارة ، وبدا ذلك واضحا في البيت الأخير فالمسحة النواسية طاغية عليه٠ ويا ترى هل ضاع الكثير من شعر الحداثة في اليمن ؟ إذ لايمكن أن تكون هذه القصيدة هي الوحيدة في زمن الاضطراب والذي يسميه البرد وني بزمن الخطورة ، أم أن التيار التقليدي في اليمن حال من دون انتشارها خارج مدنها كصنعاء أو زبيد مثلا ، أم أن الكثير من المضان اليمنية مازالت تغفو في سراديب البيوتات والمتاحف والمساجد القديمة والتي يمكن أن تكشف لنا وجها آخر للقصيدة اليمنية والأمر متروك لمن سيكمل المشوار لدراسة هذه الحقبة من تاريخ الأدب في اليمن ٠

وخلاصة القول أن تلك الملامح والنماذج ماهي ألا مقتطفات من أدب أصيل أعانته ظروف اليمن لبعدها عن ثورة التحولات الخطيرة والسريعة مع المحافظة على التراث الشعري بشكل غير مقصود ودلالة هذه المحافظة غير المقصودة هي البعد عن التكلف في اللفظ والعبارة والمعني. أما في بغداد فانك إن رأيت أحدا عاد إلى الألفاظ التقليدية والسبك اللغوي القديم يظهر عليه التخلف واضحا ومعيبا كما هو عند ابن مناذر وأبى نواس ٠٠٠ ٠ إلى جانب البعد الجغرافي والبعد الاجتماعي عن المؤثرات الحضارية فهناك أمر آخر هو ثقل

وزن المدارس اللغوية والفقهية التي كانت دائما وفي كل مكان على خارطة الإمبراطورية الإسلامية تقف إلى جانب التقليد والمواصلة ، إذ يرون في التحديث لغة وأسلوبا مسخا للغة وأساليبها ويرون في التوليد بعدا عن لغة القرآن – التي هي هدف لدراستهم – ومنهجا عقائديا في حياتهم ٠

الهوامش

١–ينظر: شبه الجزيرة العربية :١٥٦

٢– ينظر اليمن ماضيها وحاضرها : ٧٥ – ٧٨

٣–اليمن وحضارة العرب – ينظر الخارطة كما صورها الهمداني – :١٦

٤– ينظر : م٠ ن : ٨٧ ٠

٥–شرح ديوان حسان بن ثابت :٢٩ ٠

٦– م ٠ ن : ٤٧٢ ؛ غسان : ماء عند زبيد شربوا منه فسموا به ٠

٧–ينظر : الجزيرة العربية : ج١ / ٣٦١ ٠ الأجذام : م ، أجذم : لأصل والمنبت ٠اللسان : مادة (جذم) ٠

٨–ينظر: تاريخ اليمن المسمى المفيد من أخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها واعيانها وأديانها : ٣٥ ٠

٩–ينظر : م ٠ ن : ٣٢ ، وتاريخ الأدب العربي : كارل بروكلمان : ج٢ / ٢٤ ، وأخبار أبى نؤاس : ابن منظور : ٣٤ ، وتاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول: شوقي ضيف : ٢٢٠ ٠ تتضح يمانية أبي نواس في بيتي الهجاء التي قالتها الشاعرة العباسية عنان :

أبو نواس اليماني وأمه جلبان
والنقل افضل شيء إلى حروف المعاني

ينظر أخبار أبي نواس : ٣٤ ٠

١٠ – المفيد : ٣٣ ٠

١١ –التاريخ العام لليمن : ج٢ / ٨٣ ٠

١٢ –المفيد : ٣٤ ، وينظر : تاريخ الأدب العربي : بروكلمان : ج٤ / ٢٩٢ ٠

١٣ – تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي : ج١ / ٢١ ، وينظر التاريخ العام لليمن : ج٢ /٨٣ ٠

١٤ – تاريخ العرب الأدبي في الجاهلية والإسلام : نيكلسون : ٤٠٣ ٠

١٥ – حنين بن إسحاق العصر الذهبي للترجمة : ٤٥ ٠

١٦ – اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري : ٣٦ ٠

١٧ – ينظر، الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، ١٧٣ ٠

١٨ – تاريخ الأدب العربي –العصر العباسي الأول – د٠ شوقي ضيف : ١٥٠ ٠

١٩ – م ٠ ن : ١٤٨ ٠

٢٠ – عيون الأخبار ، ١٧٩ ٠ الأندية الأدبية في العصر العباسي : ٥٧ ٠

٢١ – الحيوان ، ج١ / ٩٥ ٠ اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري : ٩٧ ، ولمزيد من المعلومات ، ينظر تاريخ الرسل والملوك :الطبري : ج١ / ١٦ ٠

٢٢ – الأغاني : ج٦ / ١١ ، وللمزيد من المعلومات ؛ ينظر، زهر الآداب ، ج٣ / ١٠١٤ ٠

٢٣ – الديوان : ١٦٦ ، وينظر ، العقد الفريد ، ج١ / ٢٢٠ ٠

٢٤ – تاريخ الأدب العربي : بروكلمان : ج٣ /٨٥ ٠ وينظر ، اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري ،٩٧.

٢٥ – الفصول والغايات ، أبو العلاء المعري ، ١٣٢ ٠ وينظر ، التطور والتجديد في الشعر الأموي : د ٠ شوقي ضيف : ٣٦ ٠

٢٦ – الديوان ، ٢٢٧ ٠

٢٧ – معالم الشعر وأعلامه في العصر العباسي الأول ، ٢٣ ٠

٢٨ – الأغاني ، ج٦ / ٣١٦ ٠ وينظر ، رحلة الشعر اليمني قديمه وحديثه : ١٤ ٠

٢٩ – الفصول والغايات ، ج١ / ١٣٢ .، وينظر ، منهاج البلغاء ، ٢٦٨ ٠

٣٠ – تاريخ الأدب العربي : بروكلمان : ج٣ / ٨٥ ٠

٣١ – رحلة الشعر اليمني قديمه وحديثه ، ١٤ ٠

٣٢ – التاريخ العام لليمن ، ج٢ / ٦١ – ٧٢ ، المفيد ، ٢٥٢ ٠

٣٣ _ التطور والتجديد في الشعر الأموي ، ٣٦ ٠

٣٤ – ينظر : م ، ن : ٣٦ ، وكذلك ينظر ، رحلة الشعر اليمني ، ٢٣ ٠

٣٥ – ينظر : تاريخ اليمن الفكري : ١٥ ٠
٣٦ – ينظر : أحمد بن حنبل والمحنة : ٥٤ –٥٦ ، تاريخ الذهبي : ج١ / ١٣ و ١٢١ – ١٤٠ ، تاريخ الأدب العربي ، بروكلمان ، ج٤ / ١١ ٠
٣٧ – تاريخ اليمن الفكري : ٢٣ وما بعدها ، تاريخ الذهبي : ج١ / ٦٢٦ – ٦٣١ و ج٤ / ٣٢٩ ٠ رألة : ج ، رئال ، ورئالة : ولد النعام ٠ اللسان : مادة (رأل)
٣٨ –صفة الجزيرة : ٨٩ ، تاريخ اليمن الفكري : ٥٩ ، الإكليل ج١ / ٣١٧ ٠
٣٩ – ذكرت القصيدة عدا البيتين الأول والثاني في الإكليل : ج١ / ٣٢٠ – ٣٢١ ٠
٤٠ – المحمدون من الشعراء : ١٣٦ ،وينظر أخبار الخنفري في كتاب الإكليل : ١١٨ – ١١٩ ، ١٢٤ – ١٢٥ ، ١٢٩ ، القصيدة في الإكليل : ج١ / ٢٦٨ – ٢٧٠
٤١ – الإكليل : ج١ / ٣١٦ ٠
٤٢ – م ٠ ن : ج١ / ٣١٦ ٠
٤٣ – م ٠ ن : ج١ / ٣١٧ ٠
٤٤ – م ٠ ن : ج١ / ٣١٨ ٠
٤٥ – م ٠ ن :ج١ / ٣١٨ ٠
٤٦ – م ٠ ن : ج١ / ٢٣٨ ٠
٤٧ – م ٠ ن : ج١ / ٢٨٨ – ٢٨٩ ٠
٤٨ – تاريخ اليمن الفكري : ٦٦ ٠
٤٩ – رحلة الشعر اليمني قديمه وحديثه: ٣٨ ٠
٥٠– تاريخ اليمن الفكري : ٦٧ ٠
٥١– المحمدون من الشعراء : ١٣٦ ٠
٥٢– تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام : ٢٥٥ ٠
٥٣ – الديوان : ٢٦٦ ، وينظر الفن ومذاهبه : ١٣٧ ٠
٥٤– رحلة الشعر اليمني قديمه وحديثه:٤٢. ونسبة القصيدة إلى بشار بن برد،ينظر: ديوان بشار بن برد، ١١٤
٥٥ –الديوان : ٢١١ ، وينظر: تاريخ الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري : ٣٣٦ ٠
٥٦ – الديوان : ٢٦٦ ٠
٥٧ – الديوان : ٢٩٩ ٠
٥٨ –رحلة الشعر اليمني قديمه وحديثه : ٤٢ ٠

المصادر والمراجع

١–اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ،د٠ محمد مصطفى هدارة ،دار المعرف ،مصر، ١٩٦٣ م ٠
٢–احمد بن حنبل والمحنة ، ولتر ، أم ، باتون ، ترجمة عبد الرزاق عبد الحق ، القاهرة ، ١٩٥٨ م٠
٣–أخبار أبى نواس ، ابن منظور عبد الله بن مكرم ، تحقيق محمد عبد الله ، القاهرة ، ١٩٢٤ م ٠
٤–الأغاني ، أبو الفرج الأصفهاني ، مط دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٢٧ م ٠
٥–الإكليل : تصنيف لسان اليمن أبي محمد الحسن بن احمد يعقوب الهمداني ، حققه وعلق عليه محمد بن علي ألا كوع بن الحسين الحوالي ، مطابع شركة دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٦ م ٠
٦–الأندية الأدبية في العصر العباسي ، علي محمد هاشم ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٧٨ م ٠
٧–تاريخ الأدب العربي – العصر العباسي الأول – د ٠ شوقي ضيف ،دار المعارف ، القاهرة ، ط٩ ، د٠ت ٠
٨–تاريخ الأدب العربي : كارل بروكلمان ٠ ترجمة د٠ عبد الحميد النجار ، مط دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨ ٠
٩–تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام ،د٠ نوري القيسي واخرون ، بغداد ، ١٩٧٩ م٠
١٠–تاريخ دول الإسلام ، شمس الدين الذهبي ، تحقيق عبد السلام التدمري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٩١ م٠
١١–تاريخ الرسل والملوك ، الطبري ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، مط دار المعارف ، القاهرة ٠
١٢–تاريخ الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، نجيب محمد البهبيتي ، مط السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٦١ ٠

١٣–تاريخ العرب الأدبي في الجاهلية وصدر الإسلام ، نيكلسون ، ترجمة وتحقيق د٠ صفاء خلوصي ، مطبعة المعارف، بغداد ،١٣٨٨ هـ – ١٩٦٥ م٠
١٤– التاريخ العام لليمن ، محمد يحيى الحداد ، صنعاء ، د٠ت ٠
١٥–تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي ، احمد محمد الشامي ، صنعاء ، د٠ت ٠
١٦–تاريخ اليمن المسمى المفيد من أخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها واعيانها وأديانها ، نجم الدين عمارة علي اليمني ، تحقيق محمد بن علي ألا كوع ، صنعاء ، ١٩٨٥
١٧–التطور والتجديد في الشعر الأموي ، د٠ شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٥ م ٠
١٨–الجزيرة العربية ، مصطفى الدباغ ، بيروت ، ١٩٦٣ م ٠
١٩–جغرافية اليمن الطبيعية ، د٠ شهاب محسن عباس ، صنعاء ، ١٩٩٤ م ٠
٢٠–حنين بن إسحاق العصر الذهبي للترجمة ، ماهر عبد القادر ، دار النهضة ، بيروت ، ١٩٧٥ م ٠
٢١–الحيوان، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، مط مصطفى البابي الحلبي ، مصر ١٩٣٨ م ٠
٢٢–ديوان أبى العتاهية ، مط دار صادر ، بيروت ، د ٠ ت ٠
٢٣–ديوان أبي نؤاس ، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي ، مط مصر ، القاهرة ، ١٩٥٣ م ٠
٢٤–ديوان إبراهيم بن هرمة ، تحقيق محمد جبار المعيبد ، مط الآداب ، النجف ، ١٩٦٩ م٠
٢٥–ديوان بشار بن برد ، تحقيق الطاهر بن عاشور ، القاهرة ، ١٩٥٠ — ١٩٥٤ م ٠
٢٦–رحلة الشعر اليمني قديمه وحديثه ، عبد الله البردوني ، دار الحكمة اليمانية ، صنعاء ، ١٩٧٢ م٠
٢٧–زهر الآداب ، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري ، تحقيق ، علي محمد البجاوي ، مط عيس البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٥٣ م٠
٢٨–شبه الجزيرة العربية ، زاهية قدورة ، بيروت ، د٠ت ٠
٢٩–شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، تحقيق عبد الرحمن البرقوقي ، بيروت ، ١٩٨٠ م ٠
٣٠–الشعر والشعراء ، ابن قتيبة الدينوري ، مط دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٩ م ٠
٣١–العقد الفريد ، ابن عبد ربة الأندلسي ، تحقيق ، احمد امين واخرون ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٥ م ٠
٣٢–عيون الأخبار ، ابن قتيبة ، مط دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٤٣ هـ ٠
٣٣–الفصول والغايات ، أبو العلاء المعري ، مط ، حجازي ، القاهرة ، ١٩٣٨ م ٠
٣٤–الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، د ٠ شوقي ضيف ، مط ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩ م٠
٣٥– لسان العرب ، ابن منظور (جمال الدين ابن مكرم الأنصاري ت ٧١١ هـ) ، دار بيروت ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٥ م ٠
٣٦ — لمحات من التأريخ والأدب اليمني قديما وحديثا ، عبد الله أحمد الثور ، صنعاء ، ١٩٨٣ م ٠
٣٧– المحمدون من الشعراء ، علي بن يوسف القفطي ، تحقيق ، حسن معمري ، مط ، المتنبي ، بيروت ، ١٩٧٠ م ٠
٣٨–معالم الشعر وأعلامه في العصر العباسي الأول ، د٠ محمد نبيه حجاب ، مط دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٢ م ٠
٣٩–منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، أبو الحسن حازم القرطاجني ، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، ١٩٦٦ م ٠
٤٠–اليمن ماضيها وحاضرها ، احمد فخري ، صنعاء ، ١٩٥٧ م ٠
٤١–اليمن وحضارة العرب ، عدنان الترسيسي ، مط دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د٠ت ٠